الفقرة هي إحداث شعور بالانغلاق والانقطاع الذي تفرضه حالة السجن. فما من شيء هنا على الاطلاق يملك أن يفرض علينا الشعور بالزيف، أو الشعور بافتعال الموقف، وبالتالي فإن كل ما في الفقرة من عناصر يؤكد صدق الشعور وينجح في استحضار الحالة المطلوبة، بل وبكثير من الروعة والاتقان، الشيء الذي يتجلى في المجمل، أعني في انجاز صورة المجسّم المنغلق انجازاً ايحائياً يلتغم فيه التجريد والتجسيد في وحدة شديدة التوفيق. فقد جاء هذا المجسَّم نتيجة بديهية لتساند الصور والشذرات والخيوط التصويرية. وقد تم هذا التساند بفضل توالد الموقف، توالد جزئياته بعضها من بعض، وكذلك بفضل حيوية الألفاظ وحسن ادارتها وصرامتها في الدقة التلقائية البعيدة كل البعد عن التكلف.

ولكن، أما يراودنا الآن هذا السؤال: اليس بفضل شعورها المزمن بالاحتباس والسجن والقطيعة، بالحلك الديمومي الذي يتغلق حول روحها، حول روح الشاعرة نفسها، قد استطاعت أن تقدم هذا الشكل الناجح؟ اليس من المحتمل أن يكون السجين المبثوث بنهج كموني في هذه الفقرة هو السجين المبثوث دواماً في البنية النفسية للشاعرة عينها؟ هو اياها وليس سواها؟ إنني اوافق دون تحفظ على صحة هذه الاطروحة، بل وأرى فيها مزية من مزايا النجاح في الشعر. فبهذا يملك الشاعر أن ينجز مقولة التراكب، حيث يلتغم معنيان للشكل الواحد وفي الشكل الواحد، أو حيث تتخالط احوال وابعاد في تركيبة واحدة وتأتلف دون أن تتفارق. إن في ميسورنا أن نقرأ هذه الفقرة كما لو أنها امتداد ذاتي للقلق الذي تبينته الدراسة في القسم الأول من هذا المقال، أي من حيث هي متابعة لانكشاف الذات الشاعرة نفسها، كما أن في وسعنا أن نقرأها من حيث هي تصوير لحالة سجين فلسطيني يعيش داخل زنزانة من زنزانات العدو تغلقت من أرجائها كافة. وبهذا نرى توافق الذاتي والموضوعي، نرى تطابق الذات الشاعرة مع موضوعتها المبتغاة.

فلنلاحظ أن أربع لوحات، من أصل خمس في هذه القصيدة، تعنونها الشاعرةُ بما يُفيد بأنها اقتطفت من مفكرة شخص بعينه، إلا هذه اللوحة فقد استخلصتها من مفكرة مجهول. ثم إن علينا أن ننتبه هنا إلى أن الموقف برمته يخبىء وراءه – ولكن من دون أن يخفي – خوفاً من الظلام بالغاً حد الاستثناء. والخوف من المجهول، وكذلك الخوف من الظلام، عنصران متميزان بوضوح في المجموعات الثلاث الاولى من انتاج فدوى طوقان. فما أفلحت الشاعرة هنا إلا لأنها استثمرت – دون وعي منها – بعض سماتها النفسية الخاصة بها على وجه الحصر. ولهذا، فقد أوهمتنا بأنها إنما تتحدث عن سجين ما في سجن للعدو، بينما هي في الحقيقة لا تدور إلا حول نفسها. وفي هذا تراكب وازدواج ناجحان. ما سر نجاح هذا الازدواج؟ ببساطة، إنها تتحدث عن نفسها دون أن ندري، بل حتى دون أن تدري هي، بل اننا لنحسبها منهمكة بسجين بعينه. وفي هذه التخبئة الناجحة تكمن المزية والجودة. وبهذه الطريقة استطاعت أن تنزع ذاتها من داخلها وأن تحيلها إلى موضوع.

ولننتقل الآن إلى الفقرة الثانية من هذه اللوحة، وذلك كيما نرى كيف أصبح الشعور بعد هذه البداية الموفقة.